الفصل التاسع

المدينة، الحياة، والحرب

كان النبي ﷺ وأصحابه الذين قدموا من مكة يستقرون تدريجياً في المدينة، وأخذوا يجدون مواقعهم في هذه البيئة الجديدة، وقد مكث محمد ﷺ ضيفاً خلال الأشهر السبعة الأولى في بيت أبي أيوب رضي الله عنه إلى أن تم بناء المسجد والمنزلين القريبين منه، ثم انتقل النبي ﷺ إلى منزله وانضمت إليه زوجته سودة ـ رضي الله عنها ـ ثم بعد بضعة أشهر، عائشة ـ رضي الله عنها ـ التي جرى الاحتفال بزفافها في المدينة، ثم وصلت بنات النبي ﷺ في الأسابيع اللاحقة.

وهكذا فقد كان مجتمع جديد يتوطد في ظروف بالغة الصعوبة، وكانت الصراعات القبلية والمنازعات على السلطة كثيراً ما تعقد العلاقات بين المسلمين وأفراد العشائر الأخرى، وذلك رغم العهود والتحالفات، وفي بعض الأحيان كانت تطفو على السطح بين المسلمين أنفسهم حزازات قديمة من أيام الجاهلية تسبب التوترات بين الأفراد، ومع ذلك فقد تواصلت التربية الدينية والروحية، وكان النبي ﷺ دائماً جاهزاً ليذكرهم بالمبادئ التي يتعين على المؤمنين التقيد بها منذ الآن.

أما في مكة فقد كان الغضب يثور وكان نجاح المهاجرين ينظر إليه لا بوصفه إذلالاً لهم فحسب، بل تهديداً لتوازن القوى في شبه الجزيرة العربية كلها، فقد كانت قريش، طيلة عشرات السنين، تحتل بشكل

طبيعـي مركز الزعامة المطلقة لا بسبـب ماضيها فحسب، بل أيضاً لأنها كانت المسؤولة عن مدينة مكة ومقر الأوثان والموقع الذي كانت تلتقي فيه القبائل مـرة في السنة لأغراض تجارية، وقد انتشرت أنباء نجاح محمد ﷺ واستقـراره في المدينة في أنحاء الجزيرة، وهذا أثر بشكل كبير على مكانـة قريش وقوتهـا الفعلية، وكان محمـد ﷺ وأصحابه يعرفون ذلك وكانـوا يتوقعـون تصرفاً وشيكاً من العشيرة وأفـراد الأسرة الذين كانوا يعرفونهم حق المعرفة.

النزاع مع قريش

لم يهاجـر جميع مسلمي مكـة، فالذين لم يهاجروا كانوا يتعرضون إلى معاملـة سيئة مـن زعماء قريش، حيـث إن هؤلاء الزعمـاء منزعجين من النجاح الذي حققه محمد ﷺ. وفي الواقع فقد بقي بعض المسلمين في مكة دون الإعلان عن اعتناقهم للإسـلام، وأصبحوا يخافون الآن من الانتقام الشديد الذي ينتظرهم لا محالة إذا ما اكتشفت قريش إسلامهم.

وقـد ذهب بعض من قريش إلى أبعد من ذلك بل قرروا، مخالفة منهم لميثـاق الشرف الذي كانت كافـة عشائر الجزيرة تلتزم به، الاستيلاء على ممتلكات المهاجرين وحوائجهم التي خلفوها وراءهم في مكة، وعندما سمع محمـد ﷺ والمسلمون الذين استقروا في المدينة بهذا التصرف الذي كان عاراً وعملاً ينطـوي على الجُبن، شعروا بالغضب، فقرروا، بعد ستة أشهر من هجرتهم، مهاجمة قوافل مكة التي تمر بالقرب من المدينة ليسترجعوا ما يوازي ما تمت مصادرته في مكة من ممتلكاتهم.

وفي الأشهر التي لحقت قام النبي بتجهيز ما لا يقل عن سبع حملات (لم يشترك دائماً فيها)[1] هذه الحملات كانت تتضمن المهاجرين فحسب، لأنهم وحدهم الذين كانوا ضحايا اغتصاب قريش لممتلكاتهم، ولم يتم إشراك الأنصار، لأنهم لم يكونوا طرفاً في الصراع ولم يحدث أي قتال أو قتل في تلك الحملات: فقد كان تجار قريش يتخلون عن بضائعهم ثم يطلق سراحهم، وفي بعض الأحيان كان المهاجرون يصلون متأخرين إلى المكان الذي كان من المفترض أن يكون المكيون قد توقفوا فيه، فيجدون أن القافلة قد ارتحلت، وأن العملية قد فشلت، إلا أنهم كانوا ينجحون بصفة عامة واستطاع المهاجرون تحصيل تعويضات ذات شأن على شكل غنائم.

وفي تلك الفترة ذاتها، أرسل النبي ﷺ أيضاً بعثات كانت مهمتها جمع المعلومات عن حركات قريش وأنشطتها، ونواياها (أو احتمال استعداداتها للحرب)، والتحالفات الجديدة التي قد يقيمونها في المنطقة، كانت اليقظة أمراً أساسياً، حيث إن عدوانية قريش كانت تشتد وأصبحت علنية بشكل ظاهر وواسع الانتشار، غير أن إحدى هذه السرايا لم تكن موفقة: كان عبد الله بن جحش ومجموعة صغيرة قد أمروا بالاقتراب مسافة قريبة من عشائر قريش في وادي نخلة (بين مكة والطائف) وجمع معلومات عن نوايا زعمائها، وقد رأوا قافلة فقرر عبد الله بن جحش وأفراد مجموعته مهاجمتها رغم أن الليلة كانت آخر ليلة في شهر رجب وهو أحد الأشهر الحُرم التي كانت جميع القبائل تعد الحروب فيها محرمة، وقد قتل أحد رجال قريش واستطاع آخر الهروب وأخذ اثنان من رجال القافلة أسيرين. وعند عودتهم إلى المدينة، غضب النبي ﷺ من فعلتهم التي كانت مخالفة كلياً لتعليماته، هذا الحدث كان نقطة تحول في العلاقات بين المدينة ومكة.

كان الرسـول ﷺ يقيم أحلافـاً طيلة أكثر من سنة مـع بعض القبائل علـى طول ساحل البحر الأحمـر، على طريق كانت تسلكه عادة قوافل مكة المتوجهـة إلى الشمال، إلى ما بعد المدينة، إلى العراق أوبلاد الشام. وكان مـن المحتـم أن يزعج ذلك قريشاً التي اضطـرت للبحث عن طرق جديدة إلى الشرق كانـت التوترات في ازدياد مضطرد ووجدت قريش، التي كانت ترغـب في الإسـاءة إلى سمعـة المهاجرين وتأليب قبائـل المنطقة ضدهم، ذريعـة رائعة في الهجوم علـى القافلة الذي جـرى في الشهر الحرام، وقد دلت الاستخبارات التي تم الحصول عليها من هنا وهناك من قبل مبعوثي محمد ﷺ على أن صداماً بين المسلمين وقريش قد أصبح وشيكاً.

الوحي

أثناء هذه الفترة بالذات، نزل الوحي على النبي ﷺ مرتين متتاليتين، وكان ينطـوي على موضوعين مختلفين كل الاختـلاف في طبيعتيهما، لكنه في المرتـين كان ينطـوي على خروج عن مجريات الماضـي، فقد كان يطلب من المسلمين، طيلة أكثر من ثـلاث عشرة سنة، التذرع بالصبر وممارسة المقاومة السلبية في وجه الاضطهاد والإرهاب اللذين كانوا يتعرضون لهما على أيدي زعماء قريش والعشائر الأخرى، لقد تحملوا وثابروا ثم هاجروا دون الرد على العدوان مع تجنب المواجهة.

ولكن بعد أن استقر بالمسلمين المقام في المدينة، كان قد اتضح أن قريشاً سـوف تصعِّد معارضتها وتجد سبلاً أخرى للقضاء على رسالة النبي ﷺ، التـي لم تعد تهدد التوازن السياسي في مكـة فحسب، بل أيضاً نظام القوى

في أنحاء الجزيرة، كان مركز قريش إزاء كافة القبائل والعشائر هو المعرض للخطر وكذلك هيبتهم الدينية والعسكرية، لقد كانت الهجرة التي كانت تحرراً للمسلمين، تعني أيضاً صراعات وحروباً قادمة.

ثم نزل على النبي وحي لم يدع مجالاً للشك:

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾[2].

وقد قال أبو بكر رضي الله عنه لاحقاً عند سماعه تلك الآية، إنه فهم على الفور أنها تعلن بصراع وحرب وشيكين، مثلما فهم النبي ﷺ والصحابة الآخرون من تلك الآية، بعد الآية لم يعد يطلب من المسلمين ممارسة المقاومة السلبية، بل كان عليهم أن يدافعوا عن أنفسهم ضد عدوان العدو.

فإلى «الجهاد» الروحي والاستخباري، الذي كان يتمثل إما في مقاومة أحلك إغراءات الذات الأنانية أو الجشعة، أو العنيفة أو بالرد على حجج الوثنيين المتناقضة من خلال القرآن، فقد أضيف الآن شكل ممكن جديد لـ «الجهاد» تمثل في القتال والمقاومة المسلحة اللازمة للعدوان المسلح والدفاع عن الذات ضد الطغاة.

إن جميع أشكال الجهاد، كما يظهر بوضوح، مرتبطة بمفهوم المقاومة. هذا المفهوم ينطبق أيضاً على صعيد القتال، النضال المسلح، في آخر الآية تم التعبير عن القتال بأنه لازم لمقاومة الميل البشري الطبيعي إلى التوسع واضطهاد الآخرين:

obeikandl.com

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ﴾[3].

لقد اعتبرت الحاجة إلى توازن وتنظيم القوى ضرورة موضوعية بالنظر للطبيعة البشرية، إن القوة المطلقة لفرد واحد أو لأمة واحدة أو لإمبراطورية واحدة من شأنها أن تؤدي إلى إبادة التنوع بين البشر وإلى تدمير مختلف أماكن العبادة (القائمة تنتهي بالمساجد)، التي ترمز هنا إلى تعددية الأديان الكائنة بإرادة الله ومشيئته، لذا، فإن المواجهة بين القوى ومقاومة إغراء البشر بشن الحرب، عُبِّر عنهما، في مفارقة ظاهرية، بأنهما يعملان على تحقيق السلام بين البشر، هذا ما أكدته الآية الأخرى على صعيد أعم: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾[4].

في أول الخلق سألت الملائكة الله عن أغراضه من خلق البشر ليكونوا خلفاء له: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ ... ﴾[5]. كان سؤالهم هذا تذكرة بأن الجنس البشري هو -في طبيعته- متعطش للسلطة ويميل إلى نشر الشر وإلى القتل: أما الجانب الآخر من البشر، أي محبتهم للخير والعدل، فإنه يتعين عليهم المقاومة ومن خلال التوصل إلى توازن، يهيئون الظروف المؤدية إلى السلام وهو الثمرة الهشة للتوازن بين القوى والميول المتعارضة، وهكذا، فإن كلاً من «الجهاد» و«القتال» هما الطريقتان اللتان، سيتيحان -عبر مقاومة الإغراءات المظلمة للذات الداخلية فضلاً عن نزعة البشر البغيضة إلى الحرب- المجال للتوصل إلى السلام، الذي

يعد ثمرة جهد متواصل ومتجدد للتغلب على الإغراءات فضلاً عن الطغاة، إن جوهر «الجهاد» هو السعي إلى تحقيق السلام، أما القتال فهو، في بعض الأحيان الطريق اللازم للوصول إلى السلام.

كان المسلمون يواجهون حقبة جديدة مفتوحة أمامهم في المدينة، كان عليهم أن يواجهوا عقابيل الحروب، وضحاياها الذين يقتلون والمعاناة التي تزداد شدة جراء كون أعدائهم من عشائر الهاجرين أنفسهم، من أقاربهم. تلك كانت تكلفة بقائهم.

تغيير القبلة

كان قد مضى على استقرار المسلمين في المدينة سنة ونصف السنة تقريبا عندما نزل الوحي الثاني المشار إليه آنفاً، كانت القبلة التي يتوجه إليها المسلمون في صلاتهم حتى ذلك الحين هي القدس، لكن جاء أمر مفاجئ من الوحي:

﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾[6].

هذه الآية تنطوي على عدة رسائل وقد كان لها عواقب على علاقات النبي بالقبائل اليهودية والنصرانية، حيث إن هذا التغيير أنشأ تمييزاً، ومسافة، بين الأديان السماوية التوحيدية، ومع إن القدس ظلت أساسية في قلب الإسلام، إلا أن التوجه الجديد في الصلاة أعاد طقوساً مباشرة

وصلــة روحية بين إبراهيم عليه السلام ـ الذي بنــى أول بيت وضع للناس لعبادة اللّه ــ والإسلام التوحيــدي، وقد ابتهــج المسلمون بهذا وفهمــوا أنه عودة إلى الأصــول، إن توجيه الوجه يعني توجيه كيــان الإنسان وقلبه إلى المنبع، الأصل، الإله الواحد، إله إبراهيم عليه السلام، إله الكون والبشرية، وهكذا فقد استعــادت الكعبة وظيفتها الأولية، فعلى الأرض هي بيت اللّه، المركز الذي تتوجه الآن إليه جميع القلوب، من كافة الأطراف.

لكن القبائل اليهودية لم تكن لتبتهج بهذا التغير، فمنذ بداية استقرار المسلمــين في المدينــة، كان يوجد اختلافــات بين اليهــود والمسلمين تتعلق بالاعتــراف باللّه الواحــد وتوقيع المواثيــق بــل كان أيضــاً عنــد اليهود -بشــكل أكثر خفيةً- شكوكٌ بشأن الديــن الجديد وكانوا يخشون من أن يشــكل توسعه تهديداً لهم، وكان قد تنامى إلى سمع محمد ﷺ أن جرت اتصالات بين بعض القبائل اليهودية وبعض حلفاء قريش، فبالنظر لعدم الثقــة هذه، لم يكن الوحي الذي جاء بهذه الآية ليعزي وجهاء المدينة من اليهــود؛ لأن التوحيد الــذي جاء به محمد ﷺ بدا مــن الواضح الآن أنه يختلف عن رسالة اليهودية.

وعــلاوة على ذلك فإن تغيــير القبلة كان رسالة لا تقــل وضوحاً وقوة لسكان مكة، فالوضع المركزي الذي أخذت المدنية تنعم به في رسالة الدين الجديد جعل سكانها يخشون من نوايا المسلمين في المستقبل بشأن المدينة والكعبــة، ولم يكــن هذا بالشيء الــذي تقبله قريش وأصبــح من الواضح الآن أن القضــاء على رسالة محمد ﷺ هو وحده الذي يمكن أن يحميهم ويضمن لهم استمرار الامتيــازات التاريخية التي كلفهم الحصول عليها الكثير من الجهد والمشقة.

قافلة

كان النبي ﷺ قد علم للتو بأن قافلة بقيادة أبي سفيان كانت في طريق عودتها من بلاد الشام وهي تحمل الكثير من البضائع وأن الغالبية العظمى من عشائر قريش قد شاركوا في هذا المشروع التجاري، فقرر محمد ﷺ اعتراض القافلة، وكان أحد أسباب ذلك هو السبب السابق نفسه الذي دفعه إلى مهاجمة القافلة السابقة: الرغبة في استرجاع الممتلكات التي استولت عليها قريش عندما اغتصبوا ممتلكات المهاجرين بعد ذهابهم إلى المدينة، والسبب الثاني هو أن من شأن ذلك أن يمثل إظهاراً للقوة للتأثير على سكان مكة، الذين كانوا يتآمرون بشكل متصاعد ضد المدينة.

انطلق النبي ومعه (209) أو (313)، حسب بعض الروايات، من أصحابه، بمن فيهم المهاجرون والمنفيون من مكة، والأنصار، والمسلمون من أهل المدينة، وكانوا يحملون أسلحة ذات شأن ـ بالنظر لأهمية القافلة التي كانوا ينوون مهاجمتها ـ رغم أنهم لم يكونوا في واقع الأمر مهيئين للحرب. كان النبي ﷺ قد طلب من عثمان بن عفان رضي الله عنه، وهو أحد المهاجرين من مكة، الذي كان من الطبيعي أن يكون جزءاً من الحملة، البقاء في المدينة من أجل الاعتناء بزوجته رقية، ابنة النبي ﷺ، التي كانت تعاني من مرض شديد[7].

كان النبي ﷺ ينوي اعتراض القافلة في بدر، لكن أبا سفيان كان قد جاءه تحذير بالهجوم الوشيك من قبل جواسيسه، فأرسل مبعوثاً إلى زعماء مكة لإخبارهم بالخطر الذي كان معرضاً له وطلب المعونة، وقام على الفور

بتغيـير طريقه، وعندما تأكد من أنه استطـاع الإفلات من الهجوم، أرسل مبعوثـاً آخر إلى زعمـاء قريش لإخبارهم بأن الخطر قـد زال وأنه لم يعد بحاجة إلى معونة، غير أن زعماء قريش كانوا قد انطلقوا ومعهم ما ينوف عـن ألف رجل وقـرروا، بناء على إصرار أبي جهـل، بوجوب الاستمرار في الحملـة رغم زوال الخطر الظاهر. ومع أنه كان بالإمكان تفادي المواجهة، فإنهم، بدورهم كانوا عازمين على إظهار قوتهم ضد عدوهم. وسمع النبي ﷺ وأصحابـه، الذين عسكروا قرب بدر، بأن جيشاً ضخماً قد انطلق من مكة. وكان هذا يعني تغييراً كبيراً في الخطط: كانوا قد انطلقوا من المدينة ليضعـوا أيديهم على القافلة وما تحمله مـن بضائع (وهو ما لم يستطيعوا القيـام به)، أما الآن فإن جيشاً يبلغ ثلاثة أضعاف حجم قوتهم كان يسير إليهـم، وزعماؤه مصـرون على ما يبدو على حسم الموقـف بالقتال، كانت هذه حرباً لم يكن المسلمون مستعدين لها في واقع الأمر.

المشاورات

كان محمد ﷺ يفكر بما إذا كان يتعين عليه التقدم ومحاولة اللحاق بالقافلـة أو التوقف والعودة إلى المدينة بغيـة تجنب الاصطدام بجيش قريش الضخم، فقرر استشارة أصحابه لاستطلاع رأيهم بالمسألة. كان أبـو بكر وعمر ـ رضـي الله عنهما ـ أول المتكلمين وأكـدا استعدادهما للتحرك إلى الأمام والمخاطـرة بمواجهة شاملة، ثم تكلم مهاجر آخر، المقداد بن عمـرو، فقال: «اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك»[8].

سُـرّ النبي ﷺ لهـذا الموقف وأشـرق وجهه، لكن هذا مـا كان يتوقعه بالطبع من المهاجرين، كان يحتاج إلى الدعم الصريح من الأنصار، لأنهم لم يكونـوا طرفاً مباشـراً في الصراع مـع قريش وكانوا قد وقعـوا اتفاقية مناصـرة لا تلزمهم إلا في حالة الحـرب في المدينة، لا خارجها. وقال سعد ابن معاذ رضي الله عنه، ممثل الأنصار، بعزم وإصرار: «افعل ما شئت ونحن معك. فـو الذي بعثك بالحـق، لو استعرضت بنـا هذا البحر لحضنـاه معك، ما تخلـف منا رجل واحد» [9]. بعد أن حصل محمد ﷺ على موافقة الفئتين، قرر السير قدماً غير خائف من تحركات قريش.

كان النبـي ﷺ طيلة بعثته يستشير أصحابه ويشجعهم على الإعراب عـن آرائهم ويعيرهم انتباهـه الكلي، وكان النبي ﷺ قد استحدث أيضاً أسلوبـاً تعليمياً حقيقياً أتاح للمسلمـين تطوير مواهبهم النقدية والتعبير عـن مواهبهـم وأن ينضجـوا في وجـوده، كان كثيراً ما يطـرح أسئلة عن مختلـف المواضيع ولا يعطي الإجابات إلا بعد أن يكون أصحابه قد أعملوا فكرهـم وأعربوا عـن تخمينات مختلفـة، وفي بعض الأحيـان كان يطلق حكمـاً، بطريقـة حاذقة ولطيفـة لا تخلو مـن مفارقة، يدفـع المستمعين بواسطتهـا إلى إمعان التفكـير بالموضوع، على سبيل المثال قال مرة: «من الرجـل القـوي الذي يتغلب علـى عدوه؟» تشـاور الأصحـاب فيما بينهم بهـذا الصدد ثـم سألوه: «من هو الرجـل القوي إذاً؟» أثـار النبي دهشة أصحابـه وقادهم إلى فهم أشد عمقاً للسـؤال في إجابته: «الرجل القوي هـو الذي يملك نفسه عند الغضب!» [10]. وفي بعض الأحيان كان يتحدث مجازياً: «ليس الغنى بالثروة التي بين أيديكم!» بعد أن فكر الأصحاب في

هـذا القول، أضـاف النبي ﷺ بعض التفاصيل قائـلاً: «الغنى الحقيقي هـو غنى النفـس» [11]. في بعض المناسبات كانت أقـوال النبي ﷺ تبدو مخالفـة للمنطق السليم أو للآداب: «انصر أخـاك ظالماً أو مظلوماً!» لم يسـع الأصحاب سوى التفكير بطبيعة النصرة التي يتعين عليهم تقديمها لأخ ظـالم، كيـف يمكن ذلك؟ فيضيـف النبي ﷺ، مـن منطلق عكسي: «خذوا على يده وامنعوه من الظلم فتنصروه بذلك!» [12].

وهكذا فقد كان النبي ﷺ يلجأ إلى طرح الأسئلة أو طرح أحكام تنطوي علـى مفارقات أو تبدو متناقضة وذلك لتنشيط ملكاتهم النقدية وقدرتهم على تجاوز مجرد الطاعة العمياء، أو التقليد الآلي الذي يدمر العقل، هذا الأسلـوب عمل على تطوير القـدرة الفكرية اللازمة لكـي تكون المشاورات مجديـة، بـل إذا كان للصحابة أن يقدموا نصيحة مفيـدة، فإن عليهم أن يكونـوا يقظين فكرياً وجـرآء ومستقلين، حتى في وجود نبـي لا بد أن تكون شخصيته ومركزه قد آثار إعجابهم.

فمـن خلال تحفيز ذكائهـم وإتاحـة الفرص لهم كـي يتكلموا، تمكن النبـي ﷺ من ممارسة نوع مـن القيادة التي مكنـت الصحابة من تعلم كيفية تأكيد أنفسهم وأخذ زمام المبادرات.

كان حبـاب بن المنذر رضي الله عنه مثالاً بـارزاً على ذلك في هذه المدة التي نحن بصددهـا، فعندمـا وصل إلى بدر، عسكـر النبي ﷺ قـرب الآبار الأولى التي وجدها، عندما رأى ابن المنذر رضي الله عنه ذلك، جاء إلى النبي ﷺ وسأله: «أرأيـت هـذا المنزل، أ منزلاً أنزلـه الله لنا أن نتقدمـه ولا نتأخر عنه، أم هـو الـرأي والحرب والمكيدة؟» [13]. فأكد له النبـي ﷺ أن ذلك كان رأيه

الشخصـي، عندئذ اقترح ابن المنذر ﷺ خطة أخرى له تقضي بأن ينزلوا قـرب أكـبر بئر، هو الأدنـى من الطريق الـذي سيأتي منه العـدو، ثم يتم تغويـر الآبـار الأخرى التـي في المنطقة بحيث لا يتمكن العـدو من الوصول إلى المـاء، وبذلك فإن أعداء المسلمين سيجـدون أنفسهم أثناء المعركة، في موقـف صعب. وقد أصغـى النبي ﷺ بكليته للإستراتيجيـة التي شرحها وأقرها على الفور: فتم نقل المعسكر وتم تنفيذ خطة حباب ﷺ.

هذا المثال يدل على أن الصحابة كانوا يميزون بين ما ينزل على النبي ﷺ من وحي، فيطيعوه دون أدنى تردد، وآراء محمد ﷺ الإنسان، التي يمكن مناقشتها، أو حتى رفضها كلياً. فلم تكن سلطة الرسول ﷺ فيما يخص الشؤون البشريـة استبدادية مطلقة وغير مقيدة، فقد كان يتيح لصحابتـه دوراً لا يستهان به في التشـاور، وأوجدت تعاليمه، كما رأينا، الظـروف التي تمكـن من اكتساب تلـك القدرات النقديـة والإبداعية. لقـد أعطى النبي ﷺ صحابته، من نساء ورجال على السواء، الوسائل والثقة التي تمكنهم من الاستقلال ومن الجرأة في مخاطبته ومناقضته دون أن يُعـد ذلـك عدم احـترام لمقامه، فمن خلال هـذه المواقف، كان يظهـر لهم احترامـه العميـق لذكائهم ولقلبهـم: أما هم، فقـد أحبوا نبيهـم، وقائدهم على هذا الاهتمام بهم وقربه منهم، وهذا الطلب بأن يستخدموا قدراتهم إلى أبعد الحدود.

معركة بدر

عندمـا اتضح أن القافلة قد نجت وأن حربـاً واسعة النطاق توشك أن تندلـع، حاول محمد ﷺ ثني قريش عن اختيـار الحرب، فأرسل عمر بن

الخطـاب ﷺ ليقترح على قريش أن تعود وبذلك تتجنـب المواجهة، وكان يوجـد أيضاً بين القرشيين من يريد تجنـب الحرب، بل إن عُتبة، وهو أحد زعمـاء مكـة، عرض أن يدفع ديـة لحليفهم الذي قتـل في الشهر الحرام. لكـن ذلك لم يجدِ، فقد كان دعاة الحرب مـن القرشيين مصممين وكانوا يعرفـون أن أعدادهم كانت لمصلحتهم. بل إنهم اعتبروا محاولة عمر ﷺ دلالة علـى الضعف، كانت تلك فرصة عظيمة لهـم للقضاء على الجماعة الإسلامية والتخلص من محمد ﷺ.

من جهته، جاء ت إلهامات إلى النبي ﷺ ورأى منامات، فقد أدرك أن الحرب ستندلع من هذه المواجهة مع قريش وأن نتيجتها ستكون لمصلحته. فظل يدعو الله ويشجع أصحابه على الصبر والصمود، فقال لهم: «والذي نفس محمد بيده، لا يقتل اليوم أحد، مقاتلاً يبغي الأجر، مقبلاً غير مدبر إلا أدخلـه الله إلى جنته» (14). ثم سجد سجوداً طويلاً داعياً الله أن ينجز لـه وعده ويحفظ أمتـه وينصر المسلمين، حتى دعاه أبو بكر ﷺ إلى الكف عن ذلك، حيث إنه كان يعلم أن الله لن يخذله.

كانـت المعركة ستجـري في السابع عشـر من شهر رمضـان من السنة الثانيـة للهجرة (624 م). وفي الطريق إلى بـدر، ذكّر النبي ﷺ المسلمين الذيـن كانـوا يريدون أن يصوموا بـأن ذلك ليس إلزاميـاً في حال السفر. «ليـس مـن البر الصيام في السفـر، عليكم بالاستفادة مـن الرخص التي أعطاكـم الله إياها، فخذوها!» (15). كان يستفاد من كل ظرف من ظروف الحياة تذكرة المسلمين بتعاليم دينهم، وظل النبي ﷺ يؤكد على الرخص الممنوحـة للمؤمنين، الذين يتعـين عليهم التيسير في ممارسـة دينهم وأن

يبشـروا ولا ينفروا. «يسّروا ولا تعسروا! بشّروا ولا تنفروا!»[16]. وقد تعمد النبـي ﷺ شرب المـاء على مرأى مـن الصحابة في تلـك المناسبة وذلك ليكون قدوة لهم.

بـدأت المعركـة بثلاث مبـارزات اشترك فيهـا حمزة وعلـي وعبيدة بن الحارث ـ رضي الله عنهم ـ وقد تغلب حمزة وعلي على خصميهما لكن عبيد الله أصيـب بجـرح خطير، وبدأ القتال وأظهر المسلمـون من الثبات ما جعل قريش تنهزم سريعاً، ومع أن أعداد قريش كانت تفوق أعداد المسلمين بثلاثة أضعاف، إلا أنهم لم يستطيعوا الصمود في وجه هجوم المسلمين. ونزل الوحي لاحقـاً يذكر بتأييد الله المتواصل وملائكتـه في قلب المعركة، وإنجازه وعده: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾[17].

كان هـذا النصـر نقطة تحول: فقد نـال كثيراً من هيبة قريش وسيطرتها وانتشرت أنباء هزيمتها كالنار في الهشيم في أنحاء الجزيرة.

فقد المسلمون أربعة عشر من رجالهم، بينما فقدت قريش ما ينوف عن السبعين، بمن فيهم أبو جهل الذي كان من أشد خصوم الإسلام والذي كان أكثر تلهفاً للمعركة، وكان العباس رضي الله عنه، عم النبي ﷺ الذي كان النبي ﷺ يُسِّـر إليه في مكة، والذي شهد كافة الاستعدادات التي سبقت الهجرة) بين الأسرى القرشيين الذين كان عددهم يفوق السبعين.

في مكة، في المدينة

كانت عودة قريش إلى مكة مؤلمة، وكانت معظم العشائر قد فقدت أفراداً منها. وكان بعضهم قد بدؤوا يطالبون بالانتقام، مثل هند التي فقدت أباها

وأخاها وعمهـا في المعركة، وقد أقسمت بأن تشرب من دم حمزة ﷺ الذي قتـل أباها وعمها، ولم يضع زعماء قريش الوقـت في ردود أفعالهم، فأخذوا يقيمـون التحالفـات مع المـدن والقبائـل المجاورة مـن أجل قتـال المسلمين والانتقام لما أصابهم من إذلال ووضع نهاية لوجود المسلمين في الجزيرة.

كان أبـو لهب، الذي منعه المرض من الاشـتراك في القتال، قد بقي في مكة، وقد طلب من أبي سفيان أن يخبره بما جرى وعن ظروف الهزيمة[18]. وفيمـا كان ذلك الأخير يسـرد روايته، لم يستطع أحـد الأرقاء، الذي كان جالساً بالقـرب منهما، والذي كان قد كتم سـر اعتناقه للإسلام، تمالك نفسه من الفرح فاكتشف أمره، فقفز أبو لهب عليه وضربه بوحشية بعد أن طرحـه أرضاً، فقامت أم الفضل، زوجة العباس ـ رضي الله عنهما ـ التي كانـت موجودة أيضاً والتي كانت قد دخلت سراً في الإسلام، واندفعت نحو أبي لهب وهوت عليه بضربة من عمود خيمة.

وقد أصيب جرح رأسه العميق بالتهاب في الأيام اللاحقة ثم انتشر إلى كامل جسمه ومات بعد بضعة أسابيع، كان كل من أبي لهب وزوجته يطلقان العنـان لكراهيتهما للإسـلام، وقد جاء في القرآن، قبل عـدة سنوات، ما ينتظـره هـو وزوجته مـن مصـير[19]. وخلافاً لبعض الطغـاة الآخرين الذيـن غيروا موقفهـم في خاتمة المطاف، فإن أبا لهـب وامرأته لم يظهرا أي تعاطـف مـع رسالـة محمد ﷺ. وقد أكـد موت أبي لهـب الذي اقترن بالإهانـة والعنف، ما ورد في الوحي: فكلاهما كانا سيظلان، حتى النهاية، من الكافرين والمتمردين.

كان المسلمون قد دفنوا موتاهم وكانوا يستعدون للعودة إلى المدينة. كان معهـم سبعون أسيراً، جرت مناقشـة بشأن مصيرهم بين النبي ﷺ وأبي

بكـر وعمر ـــ رضي الله عنهما ـــ. كان عمر ﷺ يريـد أن يقتل الأسرى، وخالفـه أبو بكر ﷺ في ذلك، وقرر محمـد ﷺ إبقاءهم على قيد الحياة، باستثنـاء أسيرين كانا شديدي القسوة علـى المسلمين في مكة، حيث كانوا يذلونهـم ويعذبونهـم حتى المـوت، وكان إبقاء الأسرى يمثـل وسيلة أخرى لإذلال مشركـي قريش، الذين كانوا سيضطـرون إلى الذهاب إلى المدينة ودفـع فدية كبـيرة (تعود أيضاً على المسلمين بربـح كبير). غير أن الوحي نزل لاحقاً معاتباً النبي ﷺ على هذا الخيار، الذي كان الباعث إليه بشكل رئيس الحصول على المال[20].

وعـلاوة علـى ذلـك، كان الجنـود المسلمون قـد اختلفوا حـول تقاسم الغنائـم، وتم الإعراب عن آراء مختلفـة بشأن مزايا مختلف فئات الجنود وطريقة توزيـع الغنائم. كانت العادات السائدة قبـل الإسلام والتي كانت كميـة الغنائـم التي يتـم اكتسابهـا بعد الحـرب تسهم في تحقيـق الفخر والشرف للمنتصر، لا تزال عميقة الجذور، وقد أشار التنزيل القرآني إلى هـذا النزاع وأوضح بأن الأنفال يجب أن تذهـب إلى «الله والرسول»، مما يعني أنه كان يتعين على النبي ﷺ توزيع الغنائم توزيعاً عادلاً حسب أوامر القـرآن، وقد أشارت الآيات القرآنيـة إلى هذا النزاع، وبذلك فقد وضعت نهايـة لتلـك المنازعـات[21]. وقد واجه النبـي ﷺ المرة تلـو الأخرى مثل تلـك المنازعات بين أصحابه، وفي كل مـرة كان الوحي أو النبي ﷺ نفسه يذكرهم بأنه يتعين عليهم أن يسألوا أنفسهم عما كانت عليه نواياهم: هل كانوا يسعون وراء الثروة في هذه الدنيا أو السلام في الآخرة؟.

كانـوا لا يزالون بشراً، بنقاط ضعفهم والإغـراءات التي يتعرضون لهـا. كانوا بحاجـة إلى من يذكرهم وإلى تربية روحيـة، وإلى الصبر.

وكمـا هـي حـال كل شخص، أكانـوا قريبين مـن النبـي ﷺ أو في أي زمـن من التاريخ البشري، كانـوا بحاجة إلى من يذكرهم وإلى التربية الروحية، فالتاريخ يُنبئنا بأنه لا ينبغي أن يعتبر أي شيء أو أي أحد قد بلغ مرتبة الكمال المثالي.

عندما وصلوا إلى المدينة، تم إخبار النبي ﷺ بوفاة ابنته رقية ـ رضي الله عنهـا ـ زوجة عثمان بن عفان رضي الله عنه. كان قـد فقد حديثاً أول أصحابه، والآن جـاءه نبـأ رحيـل ابنته وهو عائد مـن غزوة تكللـت بالنصر، وذكره مزيـج الحزن والفـرح بهشاشة الحيـاة، ومرة أخرى، بعلاقتـه الأساسية بالواحـد الأحد في السراء والضراء، فما من شيء يدوم، وقد تزوج عثمان رضي الله عنه لاحقـاً أم كلثوم ـــ رضي الله عنها ـ وهي من بنـات النبي ﷺ، بينما تـزوج النبي ﷺ حفصة ـ رضي الله عنها ـــ ابنة عمر رضي الله عنه، والتي جاءت لتسكن في أحد بيوت النبي ﷺ قرب المسجد.

وبـدأت المساومـة مع أقارب الأسـرى، فبعض الأقـارب قدموا لدفع ما يتوجـب عليهم وعادوا بمن افتـدوه من أسرتهم. وتم إطـلاق سراح بعض الأسـرى دون فدية، بينمـا جرى التعامل مع أفقر الأسـرى، كل واحد على حـدة، حسـب ظروف كل منهـم. على سبيل المثـال، تعهد الأسـرى الذين يعرفـون القـراءة والكتابة والذين لم يكـن بوسعهم دفع فدية بـأن يعلّموا عشـرة من شبان المدينـة القراءة والكتابة مقابل إطـلاق سراحهم، ومرة أخـرى برهن النبي ﷺ علـى أهمية العلم عبر الرسالـة التي أرسلها إلى أفـراد أمته، فسواء في السلـم أو في الحرب، فإن العلم ـــ التعلم والقراءة والكتابة ـــ يوفر للناس مهارات أساسية ويضفـي عليهم الكرامة والسمو. فالعلم الذي كان لدى بعض الأسرى كان ثروتهم وأصبح فديتهم.

بنو قنيقاع

اقترنت الشهور التي أعقبت العودة من بدر بصعوبات على الصعيد الإقليمي، فبعد بضعة أيام من العودة من بدر، اضطر النبي ﷺ إلى قيادة قوة من مئتي رجل إلى قريتي بني سليم وبني غطفان في منطقة القُدر للقضاء على مؤامرة ودرء أي أذى، فهرب السكان، أصبح من الواضح الآن أن وضع الجماعة الإسلامية قد تغير، وكانت مدن كثيرة في المنطقة، فضلاً عن الذين لم يبرموا أي حلف، يخشون من القوة العسكرية والسياسية والرمزية التي يكتسبها محمد ﷺ في قلب الجزيرة العربية.

كان النبي ﷺ يتلقى دائماً أنباء استخباراتية عن المبادرات ومحاولات التحالف التي يقوم بها زعماء مكة من أجل إطفاء تعطشهم للثأر، وقد مكنّه منام ملهم من إحباط محاولة اغتيال من قبل عمير بن وهب، الذي بعد أن أصابته الدهشة بشأن ما كان النبي ﷺ قد عرفه عن المحاولة، دخل في الإسلام على الفور، غير أن محمداً ﷺ كان يعلم أن قريشاً ستقوم عما قريب بإجراء واسع النطاق بمساعدة كل القبائل التي استطاعوا حشدها.

بعد عودة النبي ﷺ من بدر، لاحظ أن عدداً من أهل المدينة شعروا بخيبة أمل أو بالقلق جراء نجاح المسلمين، وكان قد عرف عدداً من المنافقين الذين دخلوا في الإسلام بدافع من المصلحة الذاتية والحسابات السياسية، كما أنه كان يعلم أن بعض الذين وقعوا على اتفاقية التحالف التي تم إبرامها أول وصوله إلى المدينة لا يمكن الاعتماد عليهم وأنهم لن يترددوا في الانقلاب عليه عندما تسنح لهم الفرصة، وكان قد نزل وحي على النبي ﷺ يحذره من المنافقين: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ

﴿إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾[22]. وظل النبي ﷺ إلى حين، يكتفي بمراقبة أنشطة مختلف الجماعات، ويقبل مواثيق المنافقين على ظاهرها ويتقيد بصرامة بشروط الاتفاقية، إذ إن الوحي طلب منه الحرص والحكمة: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾[23].

كانت قبيلة بني قنيقاع اليهودية هي وحدها التي كانت تقيم داخل المدينة من بين القبائل اليهودية المقيمة في منطقة المدينة، وكانوا قد وقعوا على الميثاق، غير أن أنباء تنبه بالخطر عن الخيانة واحتمال وجود مؤامرة وصلت إلى النبي ﷺ من بين صفوفهم، للتأكد من حقيقة ما يجري، ولتجنب ترك بني قنيقاع يعتقدون بأن بوسعهم التصرف كما يحلو لهم، زارهم النبي ﷺ ودعاهم للتفكر في هزيمة قريش، فرد زعماء بني قنيقاع بصلف بأنهم إذا حاربوه، فإن النتائج لن تكون كما كانت، وأنهم سوف ينتصرون بالتأكيد، كان في الرد الذي ينطوي على التهديد تأكيد لشكوك محمد ﷺ: لقد أصبحوا معادين للمسلمين.

بعد بضعة أيام، ذهبت امرأة مسلمة كعادتها إلى سوق بني قنيقاع. وهناك تعرضت للسخرية والإهانة من قبل أحد التجار الذي ربط رداءها من ظهرها بينما كانت جالسة، فلما وقفت انكشف الجزء الأسفل من جسمها. وأراد رجل مسلم رأى ما جرى أن يتدخل: فبدأ القتال وأسفر عن موت كل من التاجر والرجل المسلم جراء إصابات كل منهما، فبموجب الميثاق كان يتعين معالجة تلك الحالة من قبل النبي ﷺ وحلّها سلمياً وضمن مبادئ العدل والشرف، ولكن بني قنيقاع خانوا العهد عبر محاولتهم التحالف مع ابن أبي سلول، وهو منافق كانوا يساومونه منذ بعض الوقت وكانوا يأملون أن يساعدهم في حشد حلفائهم في المنطقة لقتال المسلمين.

كان رد فعل النبي ﷺ سريعاً، حيث جمع جيشاً وقام بمحاصرة الحصن الذي هرب إليه بنو قنيقاع لحماية أنفسهم، كانوا يأملون أن تأتيهم مساندة خارجية من المدينة من صفوف المسلمين عبر المنافقين الذين دخلوا في الإسلام اسمياً فحسب، والذين كانوا دائماً يطمئنون بني قنيقاع بأنهم كانوا هم أيضاً يرجون القضاء على الجماعة الإسلامية. غير أنه لم يأتهم أي دعم، وبعد حصار استمر أسبوعين استسلم بنو قنيقاع.

وتذكر النبي ﷺ الوحي الذي نزل عليه من أنه ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ ﴾ رغبة في الحصول على مكسب[24]. كان له الخيار في قتل رجال القبيلة الذين خانوا العهد ونفي نسائهم وأطفالهم، كما جرت العادة في الحرب بعد تحقيق النصر، وكان من شأن هذا أن يرسل رسالة صارمة إلى القبائل المجاورة بشأن ما ينتظر كل من يخون الجماعة الإسلامية أو يهاجمها، وكان قد نزل عليه وحي بهذا الصدد: ﴿ فَإِمَّا تَثۡقَفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡحَرۡبِ فَشَرِّدۡ بِهِم مَّنۡ خَلۡفَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ٥٧ ﴾[25].

ومع ذلك فقد استقبل النبي ﷺ ابن أبي سلول - الذي كان يعرف نفاقه وتآمره السري - عندما جاء ليشفع لبني قنيقاع، ومرة أخرى، قرر عدم القضاء على أسراه لكنه أمر بمصادرة ممتلكاتهم وبأن يخرجوا من المدينة، فلجؤوا إلى بعض القبائل الأخرى والجماعات في المنطقة، لكن ذلك لم يمنعهم من التآمر على النبي ﷺ. بل على العكس من ذلك، فإن ما لحق بهم من إذلال في حقبة قريبة العهد زاد من حقدهم: وظل عدد أعداء النبي ﷺ يزداد وحقدهم يتعمق، وكان النبي ﷺ يعرف ذلك حيث ظل يدعو أصحابه إلى الحكمة والصبر، فضلاً عن اليقظة.